|  |
| --- |
|  |
|  |

**نظرية النظم**

من الواضح أن الكلام لا يستقيم إلا بنظمه الذي تحقق له تأدية المقصدية الخاصة به ؛ إنه كما يقول "ابن منظور" قول جمال الدين بن منظور: (النظم التأليف، نظمه ينظمه نظمًا ونظامًا، ونظمه فانتظم، وتنظم ونظمت اللؤلؤ؛ أي: جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، والنظم المنظوم وصف بالمصدر... والنظام ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره، وكل شعبةٍ منه وأصل: نظام، ونظام كل أمر: ملاكه، والجمع أنظمة وأناظيم... يقال: ليس لأمره نظام؛ أي: لا تستقيم طريقته، والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيطٍ ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، وجمعه نظم... والانتظام الاتساق... وليس لأمرهم نظام؛ أي: ليس له هدي ولا متعلق ولا استقامة، وما زال على نظامٍ واحد؛ أي: عادةٍ، وتناظمت الصخور: تلاصقت)

فهو يدل على الجمع والاقتران والملاك والاستقامة في خيط أو سلك واحد، ليجسد ما يعرف بالاتساق والتلاصق.

ويقول "الزبيدي": (النظم التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، وكل شيء قرنته بآخر فقد نظمته. (و) النظم: (المنظوم) باللؤلؤ والخرز، وصف بالمصدر، يقال: نظم من لؤلؤ. (و) النظم: (الجماعة من الجراد)، يقال: جاءنا نظم من الجراد، وهو الكثير، كما في الصحاح، وهو مجاز... (و) النظم: (الثريا) على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ... (ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا)، بالكسر (ونظَّمه) تنظيمًا: (ألفه وجمعه في سلكٍ فانتظم وتنظم)، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وله نظم حسن، ودر منظوم ومنظم)

فهو خص النظم بالتأليف والاقتران، والكثرة.

هذا بالنسبة لدلالته اللغوية أما من الناحية الاصطلاحية فإننا نجده لا ينفصل عن السلسلة الكلامية التي حددها **"عبد القاهر الجرجاني"** ، فالمتلفظ أو الملقي للكلام يسعى للتعبير عن رسالته اللغوية فينظم الكلام ويرتبه حسب ما يبتغيه من الدلالات التي تخدم مقصديته في ذاته أولا ثم يسعى إلى نظمها نظما دالا غير منفصل عن علم النحو .وانطلاقا من هذا التوجه نجد **"الجرجاني"** يقول: " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها".

ويفسر لنا " الجرجاني" ذلك بإشارته إلى علاقة اللفظ بالمعنى ، وما ينتج عنهما من دلالة، إنه يقول في هذا الشأن: " إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق" فإدراك دلالة المعاني تنبني في الذات الداخلية قبل إخراجها للآخر ومن ثم تكون عملية النطق الذي تتم من خلاله إرسال ما تم نظمه من كلام جاعلا إياه رسالة دالة يستقبلها الآخر .

وإذا كان النظم عنده توخي معاني النحو في الكلم فإنه يمثل لذلك في كتابه (دلائل الإعجاز) أين قال:"وجملة الأمر أن النظم إنما هو أن"الحمد" من قوله تعالى(( الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ))، مبتدأ، و(لله) خبره، و(رب) صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى (العالمين)، و(العالمين) مضاف إليه،و(الرحمن الرحيم) صفتان كالرب ، و(مالك) من قوله(( مالك يوم الدين)) صفة أيضا، ومضاف إلى يوم، و(يوم) مضاف إلى (الدين)، و(إياك) ضمير اسم الله تعالى، وهو ضمير يقع موقع الاسم إذا كان الاسم منصوبا...".

إذا تمعنا في قول **"الجرجاني"** وجدناه يقر بمجموعة من الحقائق منها:

* يمكن تحديد أنواع للمعاني أهمها: معاني الألفاظ/ الدلالات كأن نقول إن معنى (الحمد) الشكر ومعنى(الرحمة) المغفرة والتعطف، ثم توخي معاني النحو: كالابتداء، والأخبار،والفعلية، والفاعلية ، والمفعولية، والحالية...الخ
* النظم يتصل اتصالا كليا بالعملية الترتيبية لمعاني الكلمات انطلاقا من الترتيب النحوي، ففي سورة الفاتحة جعل(الحمد )أولا للابتداء به، وجعل (لله) ثانيا للإخبار به عن الحمد وهكذا.
* الترتيب في السلسلة الكلامية التي تحدث عنها "الجرجاني" لا تخرج في نظره عن ثلاثة أنماط:
* ترتيب المعاني في الذات الداخلية / النفس(معاني النحو)
* ترتيب معاني الكلم تبعا لترتيب معاني النحو
* ترتيب الألفاظ تبعا لترتيب معانيها

وإذا ما أردنا الحديث عن النظم بوصفه تأليفا لعناصر عديدة في عملية لغوية في غاية الانتظام وجدنا الدكتور "صالح بلعيد" ينير دربنا قائلا:

"هو تأليف وضم مجموعة من العناصر المتحدة في العملية اللغوية ليكون الكلام حسنا حسب الخصائص المعينة ، وهي:

* حسن الاختيار لأصوات الكلمة
* تعليق الكلمة في ذاتها
* تعليقها بما يجاورها وليس بضم الكلمات كيف ما جاءت
* مراعاة الموقع النحوي الأصيل حسب ما تقتضيه بيئة العربي
* مراعاة المعنى المباشر(السطحي) غير المنزاح، والمعنى المباشر( المنزاح)

وإذا ما عدنا إلى القدماء وتناولهم لقضية النظم وجدناهم يصلونه في تفضيل شاعر عن آخر دون وجع معايير أو منهج لهذا التفضيل ، وإذا كانت نظرية النظم تبلور قوامها البلاغي مع "عبد القاهر الجرجاني" فإن لها امتدادات سابقة وبدايات مبكرة مع الكثير من الدارسين والنقاد من بينهم:

* **سيبويه** :

الذي قال:" ﻫــذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة؛ ﻓﻤﻨــﻪ المستقيم الحسن، والمستقيم المحال، والمستقيم الكذب،والمستقيم القبيح ، وما هو المحال الكذب، فأما المستقيم الحسن فقولك : سآتيك ﻏــدا…، وأما المحال ﻓــﺄن تنتقد أول كلامك بآخره فتقول : أتيتك غدا ...، وأما المستقيم الكذب فقولك:حملت جبلا…، وأما المستقيم القبيح كأن تضع اللفظ ﻓـﻲ ﻏﻴر موضعه نحو قد زيدا رأيت …، وأما المحال الكذب فأن تقول:سوف أشرب ماء البحر أمس" (شُرِح النص في المدرج مع الطلبة)

* **بشر بن المعتمر** :

الذي لم يغفل الحديث عن قضية اللفظ والمعنى حيث أورد في صحيفته التي نجدها في كتاب (البيان والتبيين للجاحظ) أورد فيها قوله الشهير: " وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد المعنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما(...) وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها ، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها ، وفي نصابها، ولم تصل بشكلها وكانت قلقلة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها فإنك إذن لم تتعاط قرض الشعر الموزون "(شُرِح النص في المدرج مع الطلبة)

* **الجاحظ:**

"الجاحظ" في كتابه تحدث عن أمرين في غاية الأهمية: النظم في الكلام والنظم في القرآن، وكانت إشارته إلى قضية النظم بصورة غير مباشرة في كثير من المواقع من مؤلفه؛ كقوله: " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا جيدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الرهان " (شُرِح النص في المدرج مع الطلبة)

* **أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني :**

المطلع على مؤلف (إعجاز القرآن للباقلاني )يلحظ بأنه قد تحدث فيه عن فنون البديع في القرآن الكريم وحديثه عن ذلك جعلنا نقول بأنه أشار إلى النظم في القرآن الكريم وما له من إعجاز ، فصرح بذلك قائلا: " وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه... على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا" (شُرِح النص في المدرج مع الطلبة)

**-أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي:**

* وضع مؤلف أسماه (بيان إعجاز القرآن ) وتحدث فيه عن أمور عديدة منها النظم والتأليف بين اللفظ والمعنى وما يعكسه من دلالة انطلاقا من كونهما يمثلان لحمة واحدة مبينا بأن الكلام لا يؤدي مقصديته إلا من خلال ما يحمله اللفظ من معاني قائمة دون تجاهل الرباط النظمي الجامع لهما (شُرِحت الفكرة في المدرج مع الطلبة)
* **القاضي عبد الجبار:**
* يقول: "إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين لأنه لو كان جزل اللفظ، ركيك المعنى لم يعد فصيحا، فإذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة " (شُرِح النص في المدرج مع الطلبة)

**قضية اللفظ والمعنى**

تعد قضية اللفظ والمعنى من بين القضايا النقدية التي تناولها النقاد بشكل موسع فيها، حيث نالت اهتمام العديد منهم، وقبل التفصيل في حقائقها ترى أنه من الأجدر الحديث عنها من حيث المفهوم:

يقول "ابن منظور" في (لسان العرب): " لفظ: اللَّفْظُ: أَن تَرْمِي بِشَيْءٍ كَانَ فِي فِيكَ، والفِعلُ لَفَظ الشيءَ، يُقَالُ: لفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفِظُه لَفْظًا: رَمَيْتُهُ" إنه يحمل دلالة الرمي والإخراج من الفم.

ويشير" ابن فارس" في (معجم مقاييس اللغة): "(لفظ): اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة، تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم، تقول: لفظ بالكلام يلفظُ لفظًا، ولفظتُ الشيء من فمي...، وهو شيء ملفوظ ولفيظ" ؛ أي الطرح الذي يكون في الغالب من الفم.

ونوه "الشريف الجرجاني" ، في مصنفه( التعريفات) بأن " اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان - أو مَن في حكمه - مهملًا كان أو مستعملًا"، وبين بأن " المعنى: ما يقصد بشيء"

كما ذكر "**عبد القاهر الجرجاني"** في مؤلفه(دلائل الإعجاز): " واعلم أن الداء الدوي و الذي أعيا أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل من المعنى(...) ما في اللفظ \_لولا المعنى؟ فهل الكلام إلا بمعناه؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر"

وقد ذكر" مصطفى عبد الرحيم إبراهيم" فيم صنفه ( النقد الأدبي القديم عند العرب) بأن " صاغ فلسفَتَه البلاغية التي جعل محورَها نظريتَه في النظم التي ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالة الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية، وجعل النظمَ وحدَهُ هو مظهر البلاغة ومثار القيمةِ الجماليةِ في النصِ الأدبي"

ومن البديهي أن نقول بأن هذه القضية شاعت في الساحة اللغوية والبلاغية والنقدية بداية بعلماء الكلام من الفرق الكلامية وهذا قول **"الجاحظ "**المعروف: "المعاني مطروحة في الطريق،يعرفها العجمي والبدوي والقروي والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ بسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج وجنس من التصوير " فهو هنا يجعل من الشعر شبيها بالنسج والصناعة مع الإجادة في التصوير، مناديا بلا محدودية الدلالات/ المعاني ، وإقامة الوزن بتخير الألفاظ السهلة في المخارج / الطبع، وجريان استخداماتها في متون نصية ذات صياغات فنية ، عاكسة لامتدادات دلالية الكريمة التي تنير درب القارئ أو المستقبل "فمن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف" ، حيث إن الراجح في الأمر هو أن الجاحظَ كان مِن أصحاب المشاكلة والمطابقة بين اللفظ والمعنى؛ وحجَّتُنا في ذلك، هي أن "الجاحظ" جعل اللفظ والمعنى في مقابل الجسد والروح؛ إذ إن "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى للفظ روح".

وهذا **"ابن قتيبة"** الذي كان واعيا بالعلاقة الوطيدة بين اللفظ والمعنى والتي تمثل اللحمة الجامعة والمشاكلة لهما في بناء نسيجي واحد، حيث أبرز لنا في كتابه(الشعر والشعراء) أقسام الشعر الأربعة التي كانت ركيزتها ثنائية اللفظ والمعنى محددا إياها على النحو التالي:

"**-** ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه

* ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد فائدة في المعنى
* ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه
* ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه" موضحا لذلك بإيراده لمجموعة من الأمثلة لمن أراد التفصيل فيها فليعد إلى مؤلفه ليستزيد علما ومعرفة في هذا المجال.

في حين ذهب**" قدامة بن جعفر "** الذي بين بأن البنية النصية تتميز بعناصرها المتآلفة مع بعضها البعض فكل منها يكمل الآخر ، وفي هذا الصدد يقول في كتابه(نقد الشعر)- بالتحديد في باب سماه المساواة- :"وهؤ أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلا، فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه : أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر "

وإذا ما عدنا إلى مصنفه وجدناه قد ذكر عيوب الألفاظ والمعاني ،فاللفظ عنده يجب أن يكون (سمحا،سهل مخارج الحروف ،خال مــــــــــن البشاعة ،فصيحا )، ومن بين عيوبه :

**-** أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغــــــــة

**-** وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلّا شاذا وذلك هو الحوشـي.

هذا دون أن نغفل حديثه عن المعاني وعيوبها، وكذلك التآلف أو الائتلاف بين اللفظ والمعنى مبرزا أهم أنواعه التي وضحها على النحو الآتي:

* **المساواة:** بين اللفظ والمعنى
* **الإشارة:** كاشتمال الألفاظ على المعاني المتعددة أو الإيحاءات التي تدل عليها
* **الإرداف:** وهو إتيان الدلالة على معنى من المعاني فلا يسعفها اللفظ في بلوغها، بل بلفظ هو ردفه أو تابع له .
* **التمثيل:** كوضع الشاعر لما يرغب فيه من شعر متضمن لكلام يدل على غير ما وضع له كقول أحد الشعراء:

فتى صدمته الكأس حتى كأنما به فالج من دائها فهو يرعش

فالكأس هنا للسكر لا أن تكون أداة تصدم وتؤذي.

هذا وقد تحدث **" المرزوقي "** عن هذه القضية حيث ذكر حيثُ ذكر:

* شرف المعنى وصحته.
* جزالة اللفظ واستقامته.
* الإصابة في الوصفِ.
* المقاربة في التشبِيه.
* التحام أجزاءِ النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذِ الوزنِ.
* مناسبة المستعار منه للمستعار له.
* مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما.

هذا وحاول الحديث عن عيار اللفظ وكذا عيار المعنى قائلا: " فعيارُ المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح، والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنبتا القبولِ والاصطفاء، مُستأنِسًا بِقَرَائنه، خرج وافيًا، وإلا انتقض بمقدار شَوْبِهِ ووحْشَتِهِ" ، وعيار اللفظ" الطبعُ والرِّوايةُ والاستعمالُ، فما سلِم ممَّا يُهجنهُ عند العرضِ عليها، فهو المختارُ المستقيم".هذه عينة من النقاد الذين تحدثوا عن هذه القضية ومن أراد التفصيل فيها فليعد إلى المكتبة النقدية للاستفادة أكثر.

**قضية الصدق والكذب**

من الواضح أن قضية الصدق من بين القضايا التي شغلت حيزا واسعا من المساحة النقدية، إنها قبل كل شيء مرتبطة بالنفس البشرية وتقلباتها، فالصدق بكل بساطة يعبر عن "مطابقة الكلام لمقتضى الحال أي مخاطبة كل إنسان بما هو عليه وما يستحقه، والصدق مطابقة الواقع، وهو أن يعد لكل معنى ما يليق به من لفظ، والقصد للصدق يعني اكتمال الصفة بحيث لا يمكن الزيادة عليها ، في حين يكون الكذب مخالف للواقع، وهو ضرب من ضروب الخيال ، الاتساع والتخيل.

أما الكذب فهو " المبالغة والغلو في المعاني الشعرية أو في المشاعر أو نقل الواقع نقلا محرفا، فإذا ما أراد الشاعر أن يتطرق إلى موضوع معين حسنه وجمله بلفظه الشعري كما يرغب هو، وليس كما هو واقعه" فتجاوز الحدود الواقعية توحي بالخروج من حيز الصدق إلى حيز المغالاة والمبالغة ، والانتقال من المعقول إلى اللامعقول ومن المنطق إلا اللامنطق.

ومن الجدير بالذكر أن "ابن طباطبا العلوي " قد حدد له أنواعا أوردها في كتابع (عيار الشعر) جعلها على النحو التالي:

" **-** **الصدق الأخلاقي:** وهو نقل الحقيقة الأخلاقية على حالها في المدح والهجاء، وهو عيار لحسن الشعر ومطابقة مقتضى الحال

* **الصدق الذاتي:** يكشف المعاني المختلجة في النفس التصريح بما فيها، والاعتراف بالحق في جميعها تجربة الشاعر.
* **الصدق الفني:**مطابقة اللفظ والمعنى والموافقة بين الفهم والمعنى وهو أصالة الشاعر في تعبيره عن نفسه لا إلى العبارات الموروثة.
* **الصدق التاريخي:**وهو نقل الأحداث بأمانة دون زيادة ولا نقصان
* **الصدق التصويري:** صدق التشبيه، تشبيه الشيء بمثله صدقا ومطابقة للحال"

ومن خلال هذا يمكننا القول بأن "ابن طباطبا" يرى بأن الحق معادلا لمفهوم الصدق ، موضحا لذلك في ضوء تجسيد السلامة التامة من الخطأ في انتقاء اللفظ للدلالة على المعنى ، فحقائق هذه الأخيرة تتصل بالتعبير عن المرغوب فيه.

وإذا ما أردنا الحديث عن موقف بعض النقاد من قضية الصدق والكذب فلا يفوتنا الحديث في البداية عن "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه (أسرار البلاغة) الذي بين بأن: "الصدق ترك الإغراق والمبالغة والتجاوز إلى التحقيق و التصحيح واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح أحب إليه وأثره عنده " وكأننا به يدعو إلى التمسك بالواقع والانطلاق منه لتحقيق المقصدية وتجاوز ما دون ذلك.

ويبرز"قدامة بن جعفر" حقيقته في ظل مبدأ المناقضة الذي يقع فيه الشاعر في كلامه أو في قصائده " كأن يصف الشيء وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما غير منكر له، ويرى الصدق هو التعبير عن أصالة الشاعر ورجوعه إلى ذاته" ليحقق الوجود الفعلي للحقائق .

كما يعلمنا" أبا هلال العسكري " في كتابه (الصناعتين ) بأن أكثر الشعر "قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة والنعوت الخارجة عن العادات لا سيما الشعر الجاهلي وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى " وكأننا به هنا يرمي إلى أن الشعر معظمه يتكئ على الانزياح والخروج عن المألوف والتفافه حول ما هو غير واقعي والسعي نحو الانتقاء الأفضل للفظ وإجادة المعنى.

علاوة على "ابن سنان الخفاجي " الذي دعا الشاعر إلى" اختيار كلمات تقربه من الحقيقة من مثل كاد وما جرى معناها " ، كما أن "ابن الأثير" شعاره "أعذب الشعر أكذبه "

ولعل المدقق في هذه الآراء وغيرها يضع يده على المواقف التي كانت عند النقاد والتي نذكر منها في عجالة بعض ما ورد في مقولات موجزة تناولها تراثنا النقدي والبلاغي وبينها الدكتور "طارق زيداي " في مقال له نشره بمجلة " إشكالات في اللغة والأدب بعنوان إشكالية قضية الصدق والكذب وتجلياتها في النقد الأدبي القديم نورد البعض منها كما أوردها:

"- **أحسن الشعر أصدقه:** فالمهلهل بن ربيعة التغلبي من الشعراء الكذبة في قوله:

|  |  |
| --- | --- |
| ولولا الريح أسمح أهل حجر | صليل البيض تقرع بالذكور |

ولهذا قال عنه"ابن سلام الجمحي"' وزعمت العرب أنه كان يدعي في شعره ويتكثر في قوله أكثر من فعله، ويقول عنه "ابن قتيبة": " هو أحد الشعراء الكذبة" (...)

* **أحسن الشعر أكذبه:** إذا ﻛﺎن اﻟﻐﺎﻟﺐ المعيار الحاكم ﻋﻠﻰ اﻟﺸﻌﺮ في ﺻﺪر اﻹﺳﻼم ﻫﻮ ﻣﻌﻴﺎر اﻟﺼﺪق وإﺻﺎﺑﺔ الحق ؛ ﻓﺈن اﻷﻣﺮ اﺧﺘﻠﻒ في اﻟﻌﺼﺮ اﻷﻣﻮي، وذﻟﻚ ﻻﺧﺘﻼف اﻟﻈﺮوف اﻟﺴﻴﺎﺳﻴﺔ واﻻﺟﺘﻤﺎﻋﻴﺔ

واﻷﺧﻼﻗﻴﺔ، ﻓﻘﺪ ﺧﺮﺟﺖ ﻛﺜير ﻣﻦ اﻷﻏﺮاض اﻟﺸﻌﺮﻳﺔ ﻋﻤﺎ ﻛﺎﻧﺖ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﻦ اﻟﺘﺰام وسلوكي، فأصبح اﻟﺸﻌﺮاء ﻻ ﻳﺘﻮرﻋﻮن ﻣﻦ ﻗﻮل اﻟﻐﺰل اﻟﻔﺎﺣﺶ الهجاء المقذع والمدح اﻟﻜﺎذب، واﻟﻔﺨﺮ ﺑﺎﻷﺣﺴﺎب واﻷﻧﺴﺎب، وﻗﻮل اﻟﺒﺎﻃﻞ، وﺷﻮاﻫﺪ ذﻟﻚ ﻛﺜيرة ﻣﻦ ذﻟﻚ ﻣﺎ ﻗﻴﻞ ﻟﻨﺼﻴﺐ : " يا أﺑﺎ محجن،أﻻ تخبرﻧﺎ ﻋﻨﻚ وﻋﻦ أﺻﺤﺎﺑﻚ؟ ﻗﺎل:

|  |  |
| --- | --- |
| وهي غربها فليأتنا نبكه غدا | ومن كان محزونا بارهاق عبرة |
| وإن كان محروبا وإن كان مقصدا | نعنه على الاتكال إن كان تاكلا |

قال : فلما أصبح ابن أبي عتيق أخذ معه خالدا الخريت وقال له: قم بنا إلى عمر فمضيا إليه، فقال له ابن أبي عتيق: قد جئناك لموعدك قال: وأي ﻣﻮﻋﺪ ﺑﻴﻨﻨﺎ؟ قال : قولك :ﻓﻠﻴﺄﺗﻨﺎ نبكه ﻏﺪا، ﻗﺪ ﺟﺌﻨﺎك، واﷲ لا نبرح أو ﺗﺒﻜﻲ إن ﻛﻨﺖ ﺻﺎدﻗﺎ في ﻗﻮﻟﻚ، أو ﻧﻨﺼﺮف ﻋﻠﻰ أﻧﻚ ﻏير ﺻﺎدق، ثم ﻣﻀﻰ وﺗﺮﻛﻪ"

* **أحسن الشعر أقصده:** وﻫﺬا ﻣﻮﻗﻒ وسط بين الرأيين السابقين ، ويمثله "المرزوقي "الذي لم يرجح كفة أحدهما على الآخر، حيث يرى أن "أحسن الشعر أقصده " لأن ﻋﻠﻰ اﻟﺸﺎﻋﺮ أن ﻳﺒﺎﻟﻎ ﻓﻴﻤﺎ ﻳﺼير ﺑﻪ القول شعرا فقط، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جلها من غير غلو في القول ولا إحالة في المعنى ولم يخرج الموصوف إلى أن يؤمن لشيء من أوصافه لظهور السرف في آياته، وشمول التزيد لأقواله ، كان بالإيثار والانتخاب أولى".

**الموازنات النقدية**

مما لا شك فيه أن التميز والتفرد بين الأفراد شيء حتمي في الوجود الكوني، ومن هذا المنطلق سيكون لنا حديث عن قضية المفاضلة أو الموازنة بين الشعراء و التي كانت منذ القدم؛ إذ يمكن عدها ميكانيزما من ميكانيزمات التناول النقدي للأشياء أو الأغراض أو الأنماط أو الأنواع أو الأشخاص أو التوجهات الفكرية المنهجية المنتهجة بين هذا وذاك قصد الانتقاء أو الاختيار.

ومن الواضح أن قضية الموازنات كانت من القضايا الهامة في الساحة النقدية، تتكئ على سمة التمييز بين الجيد والرديء (الاستحسان والاستهجان)؛ وكانت لها بوادر مبكرة منذ أن كانت تضرب للنابغة قبة حمراء ويلقى على مسامعه الكثير من الأشعار ليفاضل بينها، و"قد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد: فوازنوا بين امرئ القيس، والنابغة، وزهري، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبحتري في الدولة العباسية، وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدمهم، أو عاصرهم من الشعراء."

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن قضية الموازنة النقدية بين الشعراء كانت نتيجة الخصومات بين الشعراء ، فكل يدعي لنفسه الأفضلية دون غيره، وكلنا على علم بحكاية أم جندب التي فاضلت بين" امرئ القيس وعلقمة "في وصف الفرس، كما كانت في العصر الإسلامي بين شعراء الرسول وشعراء القبائل العربية الوافدة وهكذا حتى العصر الذي نعيش فيه .

فالموازنة بكل بساطة أوردها "ابن منظور " في (لسان العرب) قائلا:" وزن الوزن، ثقل شيء بشيء مثله كأوزان الدراهم، وزن الشيء وزنا وزنه،قال سيبويه: اتزن يكون على الاتخاذ، وعلى المطاوعة ، وإن لحسن الوزنة أي الوزن، ويقال للآلة التي توزن بها الأشياء ميزان أيضا، قال الجوهري: أصله موزان، انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها وجمعه موازين ووازنت بين الشيئين موازنة ووزانا، وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته، أو كان محاذيه" .

فالموازنة إذن مأخوذة من فعل" "وازن" بين الشيئين موازنة ووزانا، وهذا يوازن هَذَا إِذَا كَان على زنته، أو كان محاذيه ويقال:"وزن" المعطى،" واتزن " الآخذ، كما يقال: نقد المعطى وانتقد الآخذ "

كما ورد في في (جمهرة العرب):«والوَزْن أَصله مِثقال، ومِثقال كل شَيْء وَزنه، ثم كثر ذَلِك فِي كلامهم حتى قالوا:فلان راجح الوزن، إذا نسبوه إلى رجاحة الرأي، وشدة العقل، ويقال: وازنت فلانا موازنة ووزانا إذا كافأته على فعل خير أو شر"

وإذا ما عدنا إلى ( تاج العروس) تتصل بفعل:" اتَّزَنِ العِدْلُ، بكسْر العَيْنِ: أَي اعْتَدَل بالآخر وصار مُساوِيا فِي الثّقل والخِفَّةِ، ومِن المجازِ: هُو أَوْزَن القوْمِ:أَي أَوْجَهُهُم، وتَوازَنَا:أَي اتَّزَنَا بمعْنَى تَساوَيَا"

ومعنى ذلك أن الموازنة بمثابة المحاذاة والاتزان والوزن الرجاحة، المكافأة لطرف دون آخر لفعله الخير أو الشر، وكذلك الاعتدال، والمساواة والوجاهة.

وقضية الموازنة تتصل بحاسة فنية ينطلق منها فعل التمييز والمفاضلة، فهي "منهج نقدي تطبيقي، يرمي إلى تحقيق إحدى الغايتين:الوصف والحكم أو كليهما معا، وذلك بدراسة أديبين أو أكثر دراسة شاملة على وفق معايير نقدية تختلف من ناقد إلى آخر تبعا لمذهبه في الأدب ونقده"

ومن هنا يكون إصدار الحكم مرتكزا على وجود أمرين أو شيئين يشتركان في المعايير والمواصفات فهي-الموازنة- كما وضح"أحمد مطلوب في (معجم مصطلحات النقد العربي القديم ) "المفاضلة بين شاعرين أو كاتبين، أو عملين أدبيين أو أكثر للوصول إلى حكم نقدي"، كما أنها – حسب ما ورد في ( المعجم المفصل في اللغة والأدب) إميل بديع يعقوب وميشال عاصي- تدل على "إقامة مقارنة بين أدبين أو أثرين أدبيين أو فكرتين"

وللإشارة فإن هذه القضية تناولها العديد من الدارسين-كما سلف الذكر- ويعد "ابن سلام الجمحي " هو السباق في المفاضلة بين الشعراء في كتابه(طبقات فحول الشعراء) انطلاقا من طبقات الشعراء وكثرة أشعارهم وتعدد أغراضهم وجودته ، وإن كان أحيانا يسبق الكثرة على الجودة كقوله في الشاعر" الأسود بن يعفر":" وله واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته"، كما يقول عن "أبي ذؤيب الهذلي":" وكان أبو ذئيب شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن" وهذه كلها مفاضلات غير معللة.

كما نجد "ابن قتيبة" في مصنفه( الشعر والشعراء) قد انتقى مجموعة من الشعراء انطلاقا من جودة أشعارهم قائلا: " ولا أحسب أحدا من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد، يستطيع أن يقدَّم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره"وهنا كانت الجودة عنده معيارا للمفاضلة.

ويشير "أبو بكر الصولي" من خلال (أخبار أبي تمام) الذي نعثر فيه عن بعث الأمور الدالة على الموازنة بين أبي تمام والبحتري مع الميل نحو أبي تمام كونه الشاعر المحدث الذي لا يجارى ، فهو" يكشف عن تعصبه لأبي تمام، ولكنه يُخفي هذا التعصب بالنقل من ذلك عن البحتري، من ذلك قوله في أبي تمام: "جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه"، يول "الصولي":" وقد صدق البحتري في هذا، جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه وإنما يخال في بعض قصائده لفظه لا معناه ، والبحتري لا يختل في لفظ ولا معنى إلا اختلالا قريبا "

ونحن نتحدث عن الموازنة عن هؤلاء لا يفوتنا الحديث أيضا عن **الآمدي** الذي خصص لها مؤلفا سماه(الموازنة )الذي ذكر "إحسان عباس" في(تاريخ النقد الأدبي عند العرب) بأنه" وثبة في النقد العربي القديم بما اجتمع له من خصائص لا بما حققه من نتائج، ذلك لأنه ارتفع عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة من الطبيعة دون تعليل واضح، فكان موازنة مدروسة مؤيدة بالتفصيلات التي تلم بالمعاني والألفاظ والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة... ولهذا جاء بحثا في النقد واضح المنهج، ليس فيه إلا اليسر من الاستطرادات الجزئية".فموازنته هنا لم تكن عشوائية وإنما كانت مدروسة مؤيدة بما يثبتها من تفصيلات تجمع الألفاظ والمعاني والموضوعات الشعرية بفروعها...، فهو-الآمدي- قد كان له منهجا نقديا يفاضل من خلاله بين الشعراء ، ها نحن نجده يبينه في قوله:" وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين، لأختم بذكر محاسنهما، وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام، وإحالاته وغلظه، وساقط شعره، ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذ من معاني أبي تمام، وغير ذلك من غلط في بعض معانيه، ثم أوزان من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى، فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك، ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه، وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه، وبابا للأمثال، أختم بهما الرسالة، وأتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما، وأجعله مؤلفا على حروف المعجم، ليقرب متناوله، ويسهل حفظه، وتقع الإحاطة به إن شاء الله تعالى" والمدقق في ما ذهب إليه يجده يستخدم الطابع الجامع والشامل قل إن شئت الموسوعي والتعميمي، مع وضعه لبعض المعايير النقدية الفنية للمفاضلة بين الشعراء .

هذا بالنسبة "للآمدي" أما **"القاضي الجرجاني"** في كتابه( الوساطة بين المتنبي وخصومه) راح يستند إلى الشعر العربي القديم قائلا:" كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض"

ولا بأس أن نورد مثالا على الموازنة التي أجراها "الجرجاني"-لا يمكن الحديث عن جل موازناته فهذا يقتضي منا فترة طويلة ولها على الطالب العودة إلى كتابه والاستفادة منه- بين القدامى والمحدثين الذين يعطي لهم الأفضلية ويدافع عنهم، يقول:" وإنما أحلتك على البحتري لأنه أقرب بنا عهدا، ونحن به أشد أنسا، وكلامه أليق بطباعنا، وأشبه بعاداتنا، وإنما تآلف النفس ما جانسها، وتقبل الأقرب فالأقرب إليها، فإن شئت أن تعرف ذلك في شعر غيره كما عرفته في شعره وأن تعتبر القديم كاعتبار المولد فأنشد قول جرير:

|  |  |
| --- | --- |
| ألا أيها الوادي الذي ضم سيله | إلينا نوى ظمياء حييت واديا |
| إذا ما أراد الحي أن يتفرقوا | حنت جمال الحي حنت جماليا" |

فتفضيله هنا للبحتري كان معللا 'أقرب بنا عهدا، وأشد أنسا...، وكأننا به الناقد المميز بين الجيد والرديء، تراه يقول" وقد نجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرئ القصيدة من شعره، وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف، فلا نعثر فيها إلى بالبيت الذي يروق أو البيتين، ثم قد تنسلخ قصائد منه(...) لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار، ومعان تستفاد، وألفاظ تروق وتعذب، وإبداع يدل على الفطنة والذكاء، وتصرف لا يصدر إلى عن غزارة واقتدار"فالتفاوت بين الشعراء عنده يكون من النزعة الفنية وما لها من انعكاس على الذات دون تجاهل حسن انتقاء اللفظ وعذوبته ...

حديثنا عن الموازنة عند الجرجاني لا يغفلنا تناولها عند **"ابن الأثير"**وما بينه في كتابه( المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر) الذي ركز فيه على ثلاثة شعراء دون سواهم( أبو تمام ، والبحتري والمتنبي) وجعلهم هم القدوة، في حين ذهب **"حازم القرطاجني"** في مصنفه(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) إلى المفاضلة بين الشعراء الذين" أحاطوا بقوانين الصناعة، وعرفوا مذاهبها لا يمكن تحقيقها، ولكن إنما يفاضل بينهم على سبيل التقريب وترجيح الظنون، ويكون حكم كل إنسان في ذلك بحسب ما يلائمه ويميل إليه طبعه، إذ الشعر يختلف بحسب اختلاف أنماطه وطرقه ويختلف بحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها مما شأن القول الشعري أن يتعلق به ويختلف بحسب اختلاف الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف ويختلف بحسب الأحوال..." فهو هنا يبين أنماط الشعر وطرقه في انطلاقا من قوانين الصناعة وإدراك مذاهبها ، فكانت المفاضلة عنده على سبيل التقريب والترجيح للظنون ، موضحا بأن اختلاف الشعر يكون باختلاف الأزمنة والأمكنة،والأحوال، فجاءت أحكامه نسبية ، خصوصا في ما يتعلق بالمفاضلة بين الشعراء ، كما كانت أفكاره شاملة جامعة لكل ما هو متصل بالأقطاب الثلاثة: الشعر (النص)، والشاعر(المؤسس له/ المبدع )، والعملية الشعرية (الإنتاجية).

هذه عينة من الدارسين الذين تحدثوا عن قضية الموازنات النقدية وأدعو الطلبة إلى العودة إل المكتبة اللغوية والنقدية البلاغية للاطلاع أكثر والاستزادة علما وعرفة في هذا الموضوع الذي يعد من أهم المواضيع النقدية في مجال التخصص وغي التخصص .

**النقد البلاغي**

من المتفق عليه أن النقد نشأ فطريا ساذجا يعتمد على الانفعالات الأولية والنظرة السطحية ، ومع التطور الذي مس كل الميادين ولا سيما البلاغي والنقدي منها حيث راح يشق طريقه نحو التعمق والتعليل فيا ترى ما ذا نعني بالنقد البلاغي؟ وما خصوصيته؟

## النقد البلاغي كما ذكر كلا من "نوال الأبرش و أحمد محمد " في مقال لهما بعنوان (النقد البلاغي عند صلاح الدين الصفدي) هو: " مستوى فني من المستويات التي تبحث عنها اللغة بمعناها العام، و لغة الأدب على وجه الخصوص، و يسعى إلى الكشف عن القيم الفنية و الأبعاد الجمالية في النصوص الأدبية شعرية كانت أم نثرية، فيصدر فيها حكما نقديا يعتمد على البلاغة و علومها كالبيان و المعاني و البديع..."

## إنه يتصل بكل ما هو فني وجمالي ، ويكون حكمه في قالب نقدي جامع بين البلاغة والنقد ، وهنالك "وقفات رائدة للنقاد القدامى في القرون الأولى عند الأخيلة والصور و المحسنات من خلال مقاربة النصوص الإبداعية وتحليل مكوناتها و عناصرها. و لم يقتصر هذا النقد على القرون الأولى، بل امتد ليشمل القرون المتأخرة ".

## وعلى هذا الأساس نجده يتكئ على :

* الكشف عن القيم الفنية والجمالية المحتضنة لأنماط وأفانين الظواهر البلاغية
* العملية الإبداعية البلاغية المشتملة على ألوان النزوع عن المألوف في ظل ما يصطبغه من تعابير فنية
* الاهتمام بعناصر التأثير المرئية في البيان المرسل للقارئ
* التحليل و القراءة النقدية ترتبط ارتباطا وثيقا بكل ما هو جميل ومثير
* عدم الانفصال عن القوانين والمعايير والمقاييس البلاغية

ومما يبدو لنا أنه حقيقة" مأخوذ من الجمع بين كلمتين النقد والبلاغة وذلك عن طريق إضافة الأول إلى الثاني وهو بذلك يحمل مدلولين أحدهما المقصود منه النقد المعتمد على البلاغة، وأن المفاهيم النقدية لهذا النقد مستقاة من القوانين البلاغية ، والمدلول الثاني أن النقد يستفيد من البلاغة لأنها أحد مصادر العناصر والأدوات التي يستخدمها أثناء أدائه"وهنالك جهود عديدة للدارسين في هذا المجال بداية من الجاحظ وابن المعتز، عبد القاهر الجرجاني وأبو هلال العسكري وقدامة بن جعفر وغيرهم كثير . سنتحدث عنهما في المحاضرة المقبلة